حوليات الجامعة التونسية

العدد التاسع والأربعون

2005

تونس

حوليات الجامعة التونسية

مجلة للبحث العلمي

تصدرها كلية الآداب بجامعة منوبة

الهيئة المؤسسة :

أحمد عبد السلام ـ الشاذلي بويحيى ـ منجي الشّملي ـ عبد القادر المهيري ـ فرحات الدشراوي ـ الحبيب الشاوش.

المديرون السّابقون :

أحمد عبد السلام ـ الشاذلي بويحيى ـ منجي الشّملي

المدير المسؤول : محمّد الهادي الطرابلسي

رئيس التحرير : محمد قوبعة

هيئة التحرير :

منجي الشملي ـ عبد القادر المهيري ـ محمد الهادي الطرابلسي ـ محمد صلاح الدين الشريف ـ محمد قوبعة ـ المنصف بن عبد الجليل ـ مبروك المناعي.

ثمن العدد الواحد : تونس عشرة (10) دنانير

سائر البلدان : عشرون (20) دولارا أمريكيا

توجّه الفصول الى : مدير حوليات الجامعة التونسية

وترسل الطلبيات والاشتراكات ومطالب المبادلات الى :

مصلحة النشر والتبادل

كلية الآداب ـ 2010 ـ منوبة

لا تلتزم المجلة بما ينشر فيها من آراء. ويتحمل كل كاتب مسؤولية ما ينشره فيها

الفصول المخطوطة لا ترجع إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر

جميع الحقوق محفوظة

المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

ر . د . م . ك 0099 ـ 0330

الفهرس

الصفحة

محمود المسعدي 11
محمود طرشونة

محمود المسعدي في كلّية الآداب 21
محمد الهادي الطرابلسي

أحمد عبد الوهاب بكير 29
عبد القادر المهيري

استرسال الصوت، استرسال الدلالة : مقولة الجمع نموذجا 33
الأزهر الزنّاد

الأدب عند التوحيدي بين أسر الكاتب وتحرّر الناثر 75
صالح بن رمضان

وظائف الشواهد في رواية حدّث أبو هريرة قال 87
فوزي الزمرلي

إشكالية الجنة في رواية "المجوس 111
عبد الصمد زايد

ظاهرة التكرير في العربيّة : رؤية عرفانيّة 137
توفيق قريرة

شعريّـة الرسالة الإخوانيّة من خلال رسالة الهناء لأبي العلاء المعرّي .. 183
أحمد السماوي

الرّمزيّة الصّوتيّة" الحدّ والتجاوز" 209
توفيق العلوي

عقيـــدة رؤيـــة الله في كلام أبي الحسن الأشعري 245
محسن التليلي

نظرية المعنى عند العرب بين المنوال التداولي والمنوال السيميائي 265
عبد المجيد العطواني

محنة الهجاء والهجّائين في الأدب الأندلسي 297
بسّام البرقاوي

تقديم الكتب :

الدين والدولة والمجتمع في مواقف وآثار محمد بيرم الخامس 323
تأليف : **علي الصولي**
تقديم : **كمال عمران**

حوليات الجامعة التونسية - عدد 2004/49 ص ص 263 - 294

نظريّة المعنى عند العرب بين المنوال التداوليّ والمنوال السيميائيّ

دراسة نقديّة في قراءة أحمد المتوكّل [1]

بقلم : عبد المجيد العطواني

تأمّلات في نظريّة الدّلالة في الفكر اللّساني العربيّ القديم بحث جامعي أنجزه أحمد المتوكّل. أشرف على هذا البحث غريماس وناقشه صاحبه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط أمام لجنة ضمّت بالإضافة إلى الأستاذ المشرف ب. بوتييه (B. Pottier) وأندري ميكال (A. Miquel) من فرنسا وأ. طرابلسي (A. Trabulsi) من المغرب.

وقد احتوت هذه الدراسة على جزءين كبيرين. خصّص المؤلّف الجزء الأوّل (ص 23 - 236) لـ"وصف" نظريّة المعنى عند العرب القدامى وخصّص الجزء الثاني منها "لإعادة قراءتها" (ص 237 - 311) ومقارنتها بالنظريّات اللّسانية والسيميائيّة الحديثة. ولأهميّة المقارنة خصّص لها المتوكّل قسما كبيرا من الجزء الثاني بيّن فيه قواعد إعادة القراءة وشروطها المنهجيّة. (ص 247 - 267).

(1) Ahmed Moutaowakil, Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe. Publications de la faculté des Lettres et Sciences Humaines de Rabat. 1982, 304p.

علاقتنا بهذه الدراسة قديمة، فقد عدنا إليها عند دراستنا لمصطلح المعنى في مؤلفات الجاحظ [2] وعلاقته بمختلف المفاهيم الدائرة على مفهوم البيان كالعلامة والأمارة والدليل والسّمة.

وقد عدنا إلى بحث المتوكّل في مناسبة ثانية. كان ذلك عندما طلب منّا الأستاذ حمّادي صمّود أن نخصّص القسم الأوّل من دراستنا "المعنى وبلاغة التأويل في مؤلفات الغزالي [3] لعرض أهمّ الدّراسات العربيّة وغير العربيّة التّي اهتمّت بقضايا المعنى ومسائل التّأويل عند العرب القدامى.

ومما لفت انتباهنا في هذه الدّراسات سكوت اللاحق منها عن السابق سكوتا لا يمكن تفسيره بعدم الاطلاع أو عدم القدرة على قراءة ما كتب منها بلغات أجنبية كما لا يمكن تبريره تبريرا علميّا.

ومن هذه الدراسات دراسة لمحمّد غاليم "عن البحث الدلاليّ العربيّ" [4]. فقد ذهب الباحث إلى أنّ أغلب الدّراسات العربيّة التّي تناولت المباحث الدلاليّة عند العرب القدامى دراسات جزئيّة لم تهتم "بطبيعة التصوّرات الدلاليّة" (ص 103) المشتركة بين القدامى أي لم تهتمّ بالأصول النظريّة الكبرى و"بما ولّدته من نتائج على مستوى معالجة "المسائل" المختلفة" (ص 103). أمّا تلك الدّراسات التّي وضعها أصحابها لتكون مداخل تعرّف بعلم الدلالة بوصفه فرعا من اللسانيات الحديثة كدلالة الألفاظ لابراهم أنيس (1958) و"علم الدلالة" لأحمد مختار عمر (1982) فإنّها دراسات لم يصدر أصحابها عن اختيارات منهجيّة واضحة" (ص 111). بعد ذلك يمر الكاتب للحديث عن أعمال الفاسي الفهري

---

(2) مجمع الأدلة عند الجاحظ، قراءة في اللغة الواصفة، وهو بحث أعددناه في نطاق شهادة الكفاءة في البحث أشرف عليه الأستاذ حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، (1990).

(3) وهي دراسة أنجزناها تحت إشراف الأستاذ حمادي صمود في إطار شهادة الدكتوراه، كلية الآداب منوبة (2000).

(4) د. محمد غاليم، عن البحث الدلالي العربي، في : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة الرباط، أفريل 1987، نشر دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1991، ص 101 - 150.

(ص 134 - 143) ليؤكّد أنّها تمثّل "جزءا من نظريّة نحويّة شاملة بل من مشروع متكامل للّسانيات العربيّة" (134) سعى إلى شرحه بتقديم الفصل الثامن من كتاب الفهري "اللّسانيات واللّغة العربيةّ، نماذج تركيبيّة ودلاليّة" (الكتاب 1985/2) والموسوم بـ"تعريب اللغة وتعريب الثّقافة، نحو نظريّة دلاليّة كافية".

وقد أنهى محمّد غاليم بحثه بتقديم دراسته هو عن "التوليد الدلاليّ في البلاغة والمعجم" [5]. وهي دراسة خصّصها لدراسة ظواهر التّوليد الدلاليّ اعتمادا على التصورات التي نشرها ودافع عنها الفاسي الفهري مؤكّدا على فقر المكتبة اللسانّية العربيّة في مجال البحث اللساني عامّة والبحث الدلاليّ خاصة. وهو فقر مردّه - في نظره - إلى "نقص في الأدوات النظريّة والمنهجيّة التّي يجب أن يتسلّح بها اللّساني العربيّ على أساس الوعي بأهميّة البعد الاستدلالي في النظريّات اللسانيّة المعاصرة" (147).

إنّ كلّ ما ذكره صاحب البحث بما هو معدود عنده من مظاهر النقص والقصور في التّآليف العربيّة المعاصرة والحديثة الدائرة على قضايا المعنى لا تنطبق على دراسة المتوكّل ولا على دراساته اللاّحقة. بل إنّ المتوكّل أبعد الناس عن أن يتّهم بالنّقص في الأدوات المنهجيّة أو القصور في الآلات النظريّة. ولعلّه من باب التجنّي والتّجاهل المقصود وضع دراسته ضمن الأبحاث الجزئيّة التي لا تردّ المسائل إلى أصولها ولا تدرك ضرورة ردّ الفروع إلى مبادئها النظريّة البانية لها.

لقد أسّس المتوكل "وصفه" لنظريّة المعنى عند العرب القدامى على اختيارات نظريّة منسجمة ومتماسكة. وبنى "إعادة قراءته" لها على قواعد منهجيّة واضحة صريحة استدلّ على وجاهتها ونجاعتها وبيّن وجوه التّرابط والتعالق بينها احتجاجا لكفايتها الوصفيّة وكفاءتها التفسيرية.

(5) نشر ضمن سلسلة المعرفة اللّسانية (أبحاث ونماذج) التي يشرف عليها الفاسي الفهري. ط. 1، دار توبقال، 1987.

ورغم ذلك سكت عنه محمد غاليم. ولا مبرّر لسكوته إلاّ سكوت أستاذه عنه. نقصد الفاسي الفهري.

فقد قدّم الفاسي الفهري في إطار نفس الندوة بحثا عنوانه "اللّسانيات العربيّة، نماذج للحصيلة ونماذج للآفاق" (ص 11 - 44). ميّز في هذا البحث بين ثلاث منظومات مرجعيّة في اللّسانيات العربيّة. الأولى سماها المنظومة اللغويّة التقليديّة. والثانية هي التي استمدّت أصولها ومناهجها من المبادئ البنيويّة الوصفيّة. وأمّا الثالثة فهي تلك التّي استند فيها أصحابها (= الفاسي الفهري) إلى اللّسانيات التّوليدية. وإذا كان الوصفيّون في نظره لم يستطيعوا "تقديم بديل للنحو العربي" (ص 13) ولم ينجحوا في تأويل الفكر اللّغوي العربيّ القديم وتورّطوا في إسقاط المناويل الوصفية على النصوص القديمة فإنّ المنوال التوليدي يمثل عنده "تحوّلا منهجيّا في مقاربة الظاهرة اللغوية يكاد يكون من أبرز النقلات التي صارت فيها اللّسانيات الحديثة" (ص 14). لذلك كان هذا المنوال عنده هو المنوال الكفيل ببناء "مشروع لساني عربي معقلن يعي العلاقة الممكنة بين الفكر والتّراث اللّغوي العربي والعلم اللساني الحديث ويتلافى التوفيق المتسرّع (...) بين ما ينخرط ضمن الموروث العربي وما يرد من العلم الحديث" (ص 17).

وفي إطار نفس هذا التصوّر يرى الفاسي الفهري أن المتوكّل يخلط بين وصف اللّغة العربيّة وقراءة التّراث النحوي العربيّ [6] وجد في التراث ما ليس فيه فأفسد القديم والحديث معا [7] وكانت دراسته من الدراسات ذات الأبعاد النظريّة المحدودة.

---

(6) اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، الكتاب الأول، توبقال للنشر، الدار البيضاء 1988، ص 52.

(7) نفسه، ص 60. وانظر كذلك :

F. Fahri : Linguistique arabe : forme et interprétation, Faculté des Lettres et sciences humaines de Rabat 1982, p 27,28, note 10, p. 34.

إنّ سكوت محمّد غاليم عن مساهمات المتوكّل في قراءة التّراث الدلاليّ العربيّ ونقد الفاسي الفهري له نقدا لم يخل من التجاهل والتحامل يمكن تفسيره بعدة أسباب يهمنا منها هنا ما له صلة بقراءة التراث اللغوي العربي القديم وبتحديد مسالك هذه القراءة ومقاصدها.

الرأي عند المتوكّل أنّ العودة إلى التراث اللّغوي ضروريّة ومن غايتها الكبرى عنده وضفه وإعادة قراءته قراءة جديدة تكشف عن مآتي الثّراء النّظري فيه وتحدّد مظاهره وتبيّن وجوه الحداثة في تحاليل القدامى بل إنّ العودة عنده ضرورية لأنها تمكّن الدّارس من سدّ الثغرات أو الفراغات التّي قد تعاني منها بعض النظريّات اللسانية والسيميانية الحديثة في مستوى المفاهيم الوصفية والمنهجية (المتوكّل، ص 19). من هنا يرى المتوكّل أيضا أن كلّ عملية قراءة يجب أن تنتهي ضرورة إلى عقد المقارنات بين القديم والحديث لأن مما ينتج عن هذه المقارنات تقويم النظريّات الحديثة وامتحان مدى نجاعتها والتحقّق من كفايتها التفسيرية مثلما قد ينتج عنها خلق نظريّات جديدة (تأملات، ص 258 - 261).

أمّا الفاسي الفهري فمواقفه أخرى وتصوراته مختلفة، إذ الرأي عنده أن "ليس هناك ضرورة منطقيّة أو منهجيّة تفرض علينا توظيف هذا التراث" [8] بل "لا ضرورة منهجيّة ولا منطقية تفرض الرجوع إلى الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه" [9]. ولا يتردّد الفاسي الفهري في القول إنّ "الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربيّة بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال" [10]. ولا يتعلّق الأمر في نظره بقصور المفاهيم الوصفية النحويّة فقط لأنّه يتجاوزه" إلى نقص في المعطيات والمتون التّي عليها اشتغل القدامى إنّها ليست معطيات ناقصة بل

(8) اللسانيات واللغة العربية، 1، ص 60.

(9) نفسه، ص 52.

(10) نفسه، ص 61.

هي زائفة في بعض الأحيان [11] أوقع ما فيها من زيف ونقص من سار في فلك القدامى من المحدثين في أخطاء منهجية عديدة [12]. من هذه المنطلقات اعتبر الفاسي الفهري أنّ القراءات التّي تدّعى المساهمة في قراءة الفكر اللّغوي العربي القديم أو التأريخ له يجب أن تقابل بكثير من الحذر والاحتياط ودراسة المتوكّل في نظره أحسن مثال على أسوإ قراءة تورّط فيها صاحبها في إسقاط القديم على الحديث فأفسدهما معا.

اتّجه المتوكل إلى القديم ليعيد قراءته وكانت وجهة الفاسي الفهري هي العربيّة الحديثة فأطروحته أرادها مساهمة في بناء نحو العربيّة الحديثة [13]. وعلى عكس من يدّعي بدون حجّة ولا برهان أنّ دراسة العربيّة الحديثة تقتضي أولا دراسة تاريخها يذهب الفاسي الفهري إلى أنّ دراسة اللّغة الكلاسيكيّة دراسة معمّقة وفهم الفكر النحويّ التقليديّ غير ممكنين إلاّ بوضعهما في علاقة متينة بالحاضر.

وقد وضع الفاسي الفهري دراسة نحو العربية الحديثة في إطار مشروع عام للّسانيات العربيّة من أهمّ أهدافه :

- بناء أنحاء لوصف اللّغة العربيّة الحاليّة واللّغة العربيّة القديمة وكذلك اللّهجات.
- دراسة العربيّة في إطار لسانيّات تطوريّة أو تاريخيّة تضبط العربيّة في مراحلها المختلفة والمبادئ التّي تتحكّم في هذا التطور.
- دراسة اللّغة العربيّة واللّهجات دراسة نفسيّة لسانيّة، وكذلك دراسة آليّة، بهدف بناء نماذج لاستعمالها وإدراكها.
- بناء نظريّة تؤرّخ للفكر اللّغوي العربّي بعيدا عن الإسقاطات الظرفيّة.

---

(11) نفسه، ص 54.

(12) نفسه، ص 52.

(13) A. F. FEHRI, Linguistique arabe,op.cit. -.

- تطبيق نتائج هذه الأبحاث الأساسيّة في حلّ المشاكل العمليّة للّغة العربيّة وضمنها التّدريس باللّغة العربيّة وتدريس اللّغة العربيّة، وبعث ثقافة عربيّة في المستوى اللائق [14].

والنّاظر في هذا المشروع وفي مختلف أهدافه يدرك أنّ الفاسي الفهري يضع مشروعه اللّساني في إطار حضاريّ ثقافيّ عامّ يجمع بين الطّموح النظريّ والمقاصد العمليّة "المستعجلة" [15]. وعلى رأس هذه المقاصد المساهمة في "تصوّر الحلول للقضايا التطبيقية من تعريب وتعليم" [16] و"رسم الأدوات اللاّئقة بتنمية طاقة المستعمل (...) (والبحث) في وسائل تطويع اللّغة لجعلها وظيفيّة" [17]. وهذا ما قد يقتضي منه أن يتخلى ولو إلى حين عن طموحه الأكاديمي المتمثل في تأسيس خطاب لساني عربيّ علميّ [18] ليتحول إلى مثقّف مناضل همه "امتلاك ناصية العلم والتكنولوجيا والغرف من معين الفكر التقدّمي لجعل المعرفة والعلم في خدمة جماهير شعبنا في نضالها من أجل التحرير والتجديد" وإنه لـ"نضال متواصل مرير وشاقّ" [19].

إنّ الجمع بين الأهداف النظريّة ذات المقاصد التأسيسيّة والمشاكل العمليّة الآنيّة العاجلة ممثلة في "اللّسانيات التطبيقيّة" هو الذي دعا الفاسي الفهري إلى التأكيد على أنّ "اللّسانيات مشدودة ويجب أن تكون مشدودة إلى

---

(14) اللسانيات واللغة العربية، ص 34.

(15) نفسه، 34.

(16) نفسه، ص 35.

(17) نفسه، التصدير.

(18) نفسه، ص 35.

(19) هذا جزء يسير من النصّ الطّويل الذي امتدّ على كامل الصّفحة الأربعين وقد صَدَّر به الفاسي الفهري القسم الأوّل من كتابه اللّسانيات واللّغة العربيّة (الكتاب الأوّل). واللاّفت للنّظر أن هذا النص، وهو لعمر بن جلون مسبوق بنص لكارل بوبر (K. Popper) قصير جدّا وهو نص يؤكد على أنّ العلم "ليس جسما من المعرفة ولكنه نسق افتراضات أي نسق من التخمينات والتوقعات لا يمكن تبريرها مبدئيا" (ص 39) وظاهر أنه من داخل نفس هذا الإطار النظري اشتق المنوال التوليدي مبادئه الكبرى وصاغ أدواته ومفاهيمه.

الذّهاب والإياب بين النظريّ والتجريبيّ حيث لا يكون النظريّ نظريّا إلاّ إذا كانت له طموحات (أي توقعات) تجريبيّة وحيث التجريبّي لا يكون كذلك إلا إذا اختير كأساس (أو كان ذا دلالة) لإثبات القضايا النظريّة" (20).
هذا هو الإطار الإشكاليّ العام الذي تتنزل فيه اهتمامات الفاسي الفهري بقضايا المعجم والمصطلح وانشغاله بـ"تعريب اللّغة وتعريب الثقافة" ودراسته "للبنية والوظيفة" (القسم الثالث من الكتاب الثاني). وهو إطار إشكاليّ ثقافيّ حضاريّ طموح الباحث فيه إيقاف اتّساع الهوّة بين العمل الأكاديمّي المتأنّي والشعارات الثقافيّة المرتجلة والهشّة (21).

والسّؤال الشاق هو التّالي : كيف يمكن تحقيق تلك الأهداف في وجوهها العمليّة في ظلّ منوال نظريّ لساني آخر ما يمكن أن يفكر فيه داخله هو اللّسانّات التطبيقيّة ؟ كيف يمكن أن يجمع الأستاذ الفاسي الفهري بين قول كارل بوبر K. Popper ومن ورائه "مقالات" شومسكى بالمعنى القوي الذي لمعنى المقالات عند قدماء المتكلمين المسلمين - ووصايا عمر بن جلون ؟ وموطن الإشكال في السؤال ليس الوضع الابستيمولوجي للسانيات التطبيقية الذي لم يفت الفاسي الفهري الإشارة إلى هشاشته هشاشة تجعل قيام هذه اللسانيات "استكشافيّا وتأويليّا وإجرائيّا" (22) أمر غير ممكن وإنّما هو المسلمات الكبرى والمبادئ النظريّة والمنهجيّة للسّانيات التوليدية ذاتها التّي يعرف الكاتب أصولها وفروعها معرفة متينة عميقة ويعرف ما طرأ عليها من تحولات لم تغير المنطلقات الفلسفية والابستيمية المؤسّسة لها ولم تبدّلها. وهي منطلقات لا يمكن أن تساعده على تأسيس مشروعه في بعده الحضاري الثقافي تأسيسا نظريّا إلا بالخروج إن قليلا أو كثيرا عن المنوال النظريّ التوليديّ والبحث عن منوال لسانيّ مختلف. ولا نعني هنا عدم كفاية المنوال التوليدي التفسيريّة من الناحية اللّسانية

(20) اللسانيات واللغة العربية 31/1 - 32.
(21) نفسه، ص 35.
(22) نفسه، ص 35.

الخالصة لأن ذلك لا يعنينا هنا وليست لنا نيّة صريحة ولا خفيّة لمناقشتها لأن ذلك ليس مطلوبنا الآن.

وإنّما الذي نقصده أنّ منوالا لسانيّا عقلانيا يرفض رفضا قاطعا صارما كل اتجاه تجريبيّ ويسعى إلى فهم الكلام الإنساني بافتراض أطر تفسيريّة عقلانيّة ترفض كل دور للتجربة وتبحث عن نظام القواعد الشكلية المجردة المتعالية عن التّاريخ والثّقافات سعيا إلى بناء الكلّيات بعيدا عن الوقائع اللّغوية وتعقّدها واختلافها - لعل منوالا كهذا بخصائصه التّي ذكرنا وبغيرها ممّا لم نذكر - كان يحب أن يؤدّي بالفاسي الفهري إلى التّفريط في وصيّة عمر بن جلّون.

ولو تأمّل الفاسي الفهري وأنصف لرأى أنّ بعض ما وجّهه من نقد إلى المتوكّل وإلى الوصفيّين قبل المتوكل مردود إلى انغراس مشاريعهم النظريّة في مدارات إشكاليّة حضاريّة وثقافيّة ضيّعت عليهم فرص التأسيس النظريّ وفرضت عليهم الانخراط في فكر "عمليّ" نضاليّ تسللت آثاره إلى الخطاب النظريّ واندست أسئلته في نسيجه اند ساسا عجيبا ثم تحوّلت في لحظات هاربة إلى جزء من مكوّنات ذلك الخطاب فزجّت به في مضايق نظريّة ومنهجيّة بدت في طبيعة الاختيارات اللسانية وتحوّلها من مجرّد مناويل (modèles) إلى نظريّات (théories) [23] وتجلّت متخفيّة في تلك المسافات الفاصلة بين النظريّات التّي من داخلها اشتقّت الأدوات المنهجيّة لتحقيق المقاصد العمليّة وبين النظريات التّي عليها بنيت الاختيارات الفلسفيّة. وكان من أخطر ما نتج عن ذلك قراءة التراث اللغويّ العربيّ القديم بهدف رصد مظاهر الحداثة فيه آلت إلى إفراغه من إشكالياته الذاتية المؤسسة لقوته النظرية وإخراجه وأصحابه من سياقه

(23) انظر في الفرق بين "المنوال" و"النظرية" :

R. Boudon, Modèles et méthodes mathématiques, In, tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humaines, T.1, Paris- Lahaye, Mouton, UNESCO, 1970, p. 629-685.

Mortèza Mahmoudian, La linguistique, (Introduction et conclusion de Georges Mounin), éd. Seghers, Paris, 1982. 2 : problèmes épistémologiques de la linguistique, 2.7 : Théorie et modèle, p .39-51.

الثقافيّ والتاريخيّ واقتلاعه من منابته بدعوى إدخاله وورثته إلى تاريخ كوني يرفض المختلف والكثير لهجا بالواحد وكلفا بالوحدة.

يذكر المتوكّل في خاتمة القسم الأوّل من دراسته أنّ بحثه كان محاولة تأليفيّة لعرض مختلف الخطابات العربيّة المتعلّقة بظاهرة المعنى بهدف بيان "أصالة الفكر الدلاليّ العربيّ القديم (232).

ولتحقيق هذا الهدف نظر إلى مختلف الاختصاصات (النحو، البلاغة، أصول الفقه والتفسير) بوصفها خطابا واحدا يعبّر عن نفس الابستيميّة الجامعة. وانطلاقا من ذلك سعى إلى استخراج المفاهيم النظرية الأساسيّة التّي تشدّ مختلف تلك الخطابات لرصد مستويات التنظير وتجاوز التحاليل الجزئيّة غير المفيدة.

ويؤكّد أنّه تمكّن من بيان الجهاز النظريّ الذّي بناه القدامى لوصف ظاهرة المعنى مثلما تمكن من حصر مختلف الوقائع الدلاليّة التّي حللوها وبيان مختلف فضاءات تجلّيها الخطابي.

بعد هذا التّذكير بمقاصد عمله وبالمنهج الذي توسّل به لقراءة التراث اللّغوي يقرّر ما يلي :

- إنّ التّحاليل العربيّة القديمة والجهد "التنظيريّ" الّذي أنجزه العرب في أهمّ الحقول المعرفيّة لدراسة المعنى تبقى هي هي في "ماهيتها" (232) رغم اختلاف الفضاءات ومحالّ التجليّات.

- إنّ النظريّة العربيّة القديمة تقوم على أساس تداوليّ (232) (une base pragmatique) ورغم بعض المظاهر التّي قد تنبئ بأنّ اللّغويين العرب القدامى-قد اقترحوا وصفا شكليّا، كما قد توهم بذلك المصنفات النحويّة المتأخرة ذات المقاصد التعليميّة أو التلاخيص الدائرة في فلكها، فإنّ المظاهر الدلاليّة والتداوليّة تحتل مكانة مركزيّة في "الفعل الوصفي" للعرب القدامى. ويستعير المتوكل من اللسانيات الحديثة لغته الواصفة ليؤكّد أنّ النظريّة التّي يقترحها الفكر اللغوي العربي القديم "نظريّة مؤسّسة

تداوليّا" (232) (une théorie pragmatiquement basée). وبناء على هذه النتيجة يؤكّد المتوكّل أنّ النظريّة العربيّة القديمة "نظريّة في الخطاب" (théorie de discours) وأنّ اللّسانيات فيها من "لسانيات الخطاب" linguistique de discours) وليست من لسانيات الجملة (linguistique de la phrase) (المتوكّل، 232) [24].

وبناء على هذا يقرّر أن جهود النحاة وتفكيرهم في خصائص الجملة لم يكن هدفا في ذاته (ولذاته) وإنّما كان وصفا لبعض المظاهر اللسانية الخاصّة بالخطاب، لقد كان هدف المفكرين العرب القدامى الإعداد، مرورا بدراسة الجملة، لنظريّة النصّ (232) (théorie du texte). لقد كان مقصدهم الأقصى بناء سيميائية نصيّة (sémiotique textuelle) وإرساء نظرية في التفسير تكون فيها مختلف الاختصاصات التّي اهتمت بالمعنى مجرد مكونات صغرى.

أهمّ هذه النتائج أسسّها المتوكّل على مرجعيّات منهجيّة وظيفيّة وتداوليّة هي المرجعيّات الضامنة لتحقيق مشروع الفاسي الفهري في بعده العملي. لنقل إنها المرجعيّات الكفيلة بتحقيق وصايا عمر بنجلون... إلاّ أن تلك النتائج بنيت في المستوى النظريّ والفلسفيّ على مرجعيّات ووجهات نظر سيميائيّة بنيويّة دورها هو نفس الدور الذي للمنوال التوليديّ في مشروع الفاسي الفهري في بعده النظري.

---

(24) واللاّفت للانتباه بل المحيّر أن ينتهي باحثون آخرون إلى نتائج مختلفة تماما رغم استنادهم إلى مناويل نظريّة متقاربة، من ذلك مثلا أن سامي سويدان في دراسته (من أجل مشروع علم دلالة عربي، المستقبل العربي عدد 68، السنة العاشرة - 1984، ص 66 - 108) ينتهي إلى أن الجرجاني "لم يتمكّن من الوصول في نظريّته الدلاليّة إلى أفقها النهائيّ" إذ بقيت في حدود العبارة الواحدة أو البيت الشعري الواحد... وبقي (الجرجاني)" أسير معطياته المختصة بالجملة والعبارة ولم يصل إلى بناء نحو النصّ" (ص 98). وقارن :

طارق النعمان، اللّفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط.1، 1994 الذي ينتهي إلى أن التراث البلاغي بقي يتحرّك في حدود الجملة، (ص 381) ممّا أدّى إلى غياب مفهوم النصّ (ص 380).

ولهاتين المرجعيتيّن تصوّرات مختلفة بل متقابلة للمعنى إنتاجا ومفهوما ودراسة. وهي تصوّرات، وهذا هو الأهمّ والأخطر، قائمة على فلسفات وأطر نظرية معرفية مختلفة بل متقابلة. إنّ كل الإشكال في نظرنا في دراسة المتوكّل هو في حضور هاتين المرجعيتين معا حضورا لم يمثّل بالنسبة إليه أيّ إشكال نظريّ. ونفرض أن مردّ هذا إلى غياب ما يسمّيه غريماس "المراقبة الابستيمولوجيّة للمنهج" [25]. ولعل أهمّ عوامل هذا الغياب كثافة حضور السؤال الحضاري والثقافي وهو السؤال الذّي سمّاه تمام حسان كما نرى "السّؤال الملحّ" وهو نفس السّؤال الذي عبّر عنه نص عمر بنجلّون عند الفاسي الفهري.

يستند المتوكل في دراسته إلى مدارس وظيفيّة وتداوليّة مختلفة من بينها التيّار التداوليّ التركيبيّ (pragmantaxe) وهو اتجاه بعض علماء الدلالة التوليديّين سعوا إلى استعارة مفاهيم تداولية مثل الأعمال اللّغوية (actes de langage) (المتوكّل 279 - 282).

ومن أهمّ مبادئهم أنّ المظاهر التداوليّة لها نفس القيمة التّي للشكل في كلّ فعل وصفيّ يريد أن يكون كافيا وملائما. والرأي عندهم أن بعض المظاهر الشكلية لا يمكن تفسيرها إلا بالرجوع إلى البعد التداولي. ولذلك فإن النظريّة النحوية التّي تسعى التداوليّة التركيبيّة إلى بنائها يجب أن تراعي التفاعل (interaction) بين الأبعاد التداولية والتركيبية. وقد عوّل عليهم المتوكّل في دراسة الأعمال اللغويّة عند العرب القدامى (ص 168 - 199).

أمّا النظريّات الوظيفيّة الحاضرة في دراسته فيجمع بين أصحابها رغم اختلافاتهم المنهجية التسليم بضرورة وصف بنية اللّغة في علاقتها بوظيفتها (أو وظائفها). وعلى رأس هذه الوظائف وظيفة التواصل وهو ما تتفق فيه مع التيارات التداولية (المتوكل 289 - 300). إنّها تسلّم جميعا بأنّ اللّغة أداة تفاعل اجتماعي بنيتها مشدودة إلى وظائف وهذه الوظائف

(25) A.J. Greimas, du sens, Paris, Seuil, 1970, p.12.

هي المحددة لخصائصها الشكليّة في مستوى الاستعمال والإجراء (المتوكل ص 289 - 296) [26].

انطلاقا من كلّ هذه المبادئ التداوليّة والوظيفيّة درس المتوكّل نظريّة المعنى عند العرب وانتهى كما رأينا سابقا إلى أنهّا نظرية مؤسسّة تداوليا.

وقد تجلّت هذه التداوليّة في نظره عند العرب في مظاهر عديدة. تجلّت في مستوى المفاهيم الوصفيّة والمنهجيّة (المتوكل ص 68 - 139) وفي مستوى التّحاليل (المتوكّل ص 236 - 241) وفي مستوى الصياغة النظريّة أو ما يسميّه المتوكّل بعد المحدثين "النمذجة (modélisation). تجلّت عند النحاة الذّين اهتمّوا بقصد المتكلّم وانتبهوا إلى دور المقام (سيبويه، ابن هشام) وبانت عند البلاغيين (الجرجاني والسكاكي) (44 - 48) الذين انتبهوا ونبّهوا إلى مظاهر النقص في التّحليل النحويّ الشكليّ (= الزمخشري، ابن عقيل) وظهرت عند الأصوليّين عندما أكدوا أنّ النحو الذي يكتفى فيه بوصف الأشكال والبنى المجرّدة عن وظائفها نحو لا يعتد به ولا يوثق بعلم أصحابه (المتوكل 53) فدعوا (الشاطبي..) إلى نحو شامل يجمع بين الصرف والتركيب والمقام.

ومما يؤكّد هذا الاتجاه التداولي الوظيفي عند العرب في نظر المتوكل المفاهيم الوصفيّة والمنهجيّة المعتمدة. وعلى رأسها مفهوم المعنى ذاته إذ يدلّ على "القصد" و"الغرض" وهو ما يترجمه الكاتب بالمعنى التداولي (sens pragmatique). وقد بان ذلك خاصّة في تعريفهم للّغة تعريفا يؤكّد على وظيفتها وينبئ باتجاه الوصف الذي قاموا به لها. إنّ اللّغة أداة تواصل وإن مركزيّة مفهوم التواصل يمثل أساس الاتّجاه التداوليّ في النظرية اللسانية العربيّة القديمة (المتوكل 70). وقد تجلّت أهميّة مفهوم التواصل في تأكيدهم على أهميّة مفهوم الإفادة (المتوكّل 76 - 83) كما تجلّت في قسمة الكلام إلى خبر وإنشاء.

---

(26) وانظر أيضا : أحمد المتوكّل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. 1، 1986، ص 9 - 22.

وبناء على هذا وعلى مختلف الظواهر التّي عدّها من الوجوه الدالة على أهمية المعنى التداولي يقرّر المتوكّل أنّ هناك "إجماعا مطلقا" (87) عند القدامى على أسبقية المعنى/القصد على معنى اللّفظ. وهو إجماع متأسّس عندهم على اتفاقهم على أنّ العناصر المقاميّة هي التي تحدد بنية اللّفظ (الملفوظ) ومردّ كلّ هذا عنده إلى أن دور العناصر المقاميّة ليس دورا تأويليّا فقط كما يذهب إلى ذلك الأصوليّون والمفسّرون (90) وإنّما هو دور توليديّ كما يؤكّد البلاغيّون الذين درسوا بصورة منظمّة وجوه التّرابط بين البنية والمقام وسعوا إلى بناء منوال وصفي قادر على تمثيل هذا الترابط. وإذا كان منوال السكاكي منوالا تأويليّا (modèle interpretatif) متأسسّا على نظريّة شاملة في الوصف اللّساني سمّاها السكاكي نفسه علم الأدب (المتوكل 104) فإنّ منوال الجرجاني منوال توليديّ (modèle génératif).

ومردّ وسمه بأنّه توليديّ في نظر المتوكّل إلى أنّ وظيفة المكوّن الدّلالي - السابق منطقيا للتركيب - وظيفة توليديّة، إنّها "تولّد" (108) الملفوظ وتحدّد بنيته [27].

(27) على هذه الفرضيّة وعلى مبدإ استقلال المكوّن الدلاليّ عن المكوّن التركيبيّ بنى المتوكّل تحاليله لنظريّة النظم عند الجرجاني في دراسة قديمة، انظر : أحمد المتوكّل، نحو قراءة جديدة لنظريّة النّظم عند الجرجاني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد الأول، يناير 1977، ص 101 - 91. ومثل هذه الانزلاقات المنهجيّة وعدم مراقبة المفاهيم والتثبّت من خلفياتها الفكريّة (بل) والايدولوجية والعقدية هي التي زينت لكثير من الباحثين إرجاع كل المفاهيم اللّسانية والدلاليّة الحديثة إلى التّراث اللّغوي العربي القديم. انظر :

- رشيدة عبد الرحمان العبيدي، الألسنيّة بين عبد القاهر والمحدثين، المورد، مجلد 18 عدد 3، 1989، ص 5 - 23. في هذه الدراسة يصبح مفهوم "النظام" عند سوسور هو عينه مفهوم النّظم عند الجرجاني ويصبح مفهوم الكلام النّفسيّ عند الأشاعرة مرادفا لمفهوم البنية العميقة عند تشومسكي !

وقارن : ايمان القاضي، نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني، الموقف الأدبي عدد 172، آب 1985، ص 7 - 25.

أقل ما يمكن أن يقال عن مثل هذه التأويلات أنها ضرب من ضروب الكهانة بل لعب بالمخراق.

وهذا المنوال قائم في نظر المتوكّل في النظريّة العربيّة القديمة على فرضيّة مهمّة تمثّل مبدأ ثابتا من مبادئها مفاده أن المعنى يحدّد الشكل (المتوكّل ص 110).

هذا ما ظهر في ذهاب بعض النحاة إلى أن المعنى سابق للشكل وأن الشكل يتصوّر بصور مختلفة باختلاف الغرض أي باختلاف الدلالة التداوليّة بلغة المتوكّل.

وظهر أيضا عند الأصوليين في قاعدة منهجيّة تشقّ كلّ الفكر الأصولي مضمونها أنّ كل وصف لساني للمعنى يقوم على اعتبار مراد المتكلم (أو قصده) سابقا للمعنى التركيبيّ والقول بأسبقية المعنى التركيبي للمعنى المعجميّ واعتبار القصد والمعنى التركيبي سابقين معا لشكل الملفوظ وبنيته (110).

وقد سعى المتوكل إلى الاستدلال على مبدإ تحديد الوظيفة للبنية والمعنى للشّكل في دراسته للأعمال اللغوية [28] (162 - 198) فأكد على حضور المفهوم عند القدامى وعلى قسمة الأعمال اللغوية إلى أعمال مباشرة وأخرى غير مباشرة بل على استدلال النّحاة على الفرضية الإنجازيّة (hypothèse performative) وعلى ذهاب البلاغيين إلى أنّ لهذه الأعمال اللغوية بوصفها معاني وجودا خاصا مستقلا عن أشكالها (175 - 176) حوّله سيبويه إلى مبدإ تفسيري علّل به القرابة الشكليّة الجامعة بين الاستفهام والأمر إذ ردّها إلى خصيصة دلاليّة جامعة محلّها بنية عميقة (ص 179 - 180) استقلالها عن الشكل من أكبر الحجج عند المتوكل على أن المعنى يحدّد الشكل.

---

(28) انظر قراءتنا لدراسة المتوكّل للاعمال اللغويّة في أطروحتنا، الباب الثاني : أصل الصّيغة، الأمر النحوي وميتافيزيقا الأمر الإلهي، ص 132 - 210. وقارن : خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية، جامعة منوبة كلية الآداب - المؤسسة العربية للتوزيع، تونس 2001. وقارن :
Pierre Larcher, Une pragmatique avant la pragmatique , «Médiévale» «Arabe» et« islamique» In : Histoire Epistémologie langage. 20/1 (1998), p. 101-116.

وهذا ما رفعه المتوكّل إلى مبدإ نظريّ أساسي من مبادئ الفكر اللغويّ العربي القديم وأكّد عليه في مواطن عديدة من دراسته وصاغه صياغة حديثة مؤدّاهـا أن "الوظيفة التداولية هي المحددة لبنية الملفوظ" (199). ودعاه ذلك إلى تخصيص قسم من بحثه لدراسة "البنية والوظيفة" (199 - 217) والنظر في تصور القدامى للعلاقة بينهما لأنها تمثل القطب الذي دارت حوله دراستهم للمعنى. وهو ما تجلّى في دراستهم للخبر الذي نظروا إليه من جهة وظيفيّة تواصليّة أساسها أن الفعل التواصلي الناجح هو الذي يحقق أقصى درجة ممكنة من الشّفافية ويضمن مبدأ الإفادة (200 - 201).

هذه أهم صور حضور التداولية في دراسة المتوكّل التّي عليها بنى أن النظريّة العربيّة نظرية مؤسّسة تداوليا. وهو الاستنتاج الذي عاد إليه في الجزء الثاني من عمله ليؤكد بعد المقارنة بين الخطاب اللساني العربي والخطابات التداولية والوظيفة أن المبادئ النظرية للنّظريّة العربية ولهذه النظريات الحديثة تندرج جميعا في إطار نظريّة تداولية عامة (296).

* * *

والملاحظ ههنا أنّ مثل هذه النتائج لتكون مقنعة من الناحية المنهجيّة والنظريّة كان يجب أن تكون متأسّسة على نظريّة في القراءة مشتقّة من داخل الأساس الماوراء - نظريّ (métathéorique) للتيارات الوظيفيّة وخاصة للتداولية. نقصد أنّه كان على المتوكّل أن يقرأ النظريّة العربيّة القديمة قراءة تداوليّة. هذا أمر مهمّ والكلام فيه صعب وطويل والمقام قد لا يسمح ببيانه لذلك نكتفي بالإشارة إليه على الأقل لأنّ ما يأتي بعده متأسّس عليه.

إذا كانت اللّغة من الوجهة التداولية ممارسة (pratique) وعملا (action) موصولا بـ"قصدية" (intentionnalité) [29] بالمعنى القويّ الذّي للعبارة في فلسفة اللّغة وفي الفلسفة الظّواهراتيّة وبالمعنى الذي نشرته

(29) Herman Parret, Prolégomènes à la théorie de l'énonciation, de Husserl à la pragmatique, Peter Lang S,A, Berne, 1987, p.92-111.

الفلسفات التأويليّة، فلم لم ينظر المتوكّل إلى النظرية العربيّة بوصفها "ممارسة" وبوصفها "عملا" ؟ لِمَ لَمْ ينظر إليها في علاقتها بمقاصد أصحابها ؟ لم درس نصوص القدامى بوصفها "جملا" ولم يدرسها بصفتها "خطابات" لِمَ درس نظريّة انتهى إلى أنها مؤسسة تداوليّا معزولة عن وظائفها التداولية وأدوارها الحجاجيّة ؟ لِمَ لَمْ يدرس "الأقوال" بوصفها "أعمالا" ؟.

إذا كان التأويل الدلاليّ الكافي يقتضي عند المتوكّل ربط المعنى بالمقام وربط الملفوظ بسياقات التلّفظ [30] فَلِمَ لا يكون التأويل قائما على نفس المقتضيات عندما يتعلق الأمر بدراسة الخطابات النظرية ذات المقاصد العلميّة ؟.

لو فعل المتوكّل ذلك لكانت النتائج التّي توصّل إليها مؤسّسة تداوليّا ولو فعل ذلك لتجنّب اتّهام تصانيف القدامى بالفوضى والاعتباط (ص 141) ولفهم أن ما عده فوضى مربوط "باستراتيجيات خطابية" تعبّر عن "عبث" (= منطق) [31] خاصّ أي عن رؤية للعالم خاصّة وعن تصوّر للمعنى متصل بالمعنى الذي في نصوصهم وبسياقات إنتاجه وآفاق تقبّله ومراسم تأويله.

ذاك ما كان يجب أن تقود إليه التداولية لو كانت هي المؤسّسة لفعل القراءة الذي قام به المتوكّل.

ولكنّه لم يفعل لأنّ ذلك لم يكن ممكنا تاريخيّا ونظريّا. ولنفهم ذلك نحتاج إلى العودة قليلا إلى الوراء، إلى تمام حسان لنفهم كيف كان من حق الوصفية القائمة على توزيعيّة بلومفيلد (Bloomfield) التّفريط في "سياقيّة" مالينوفسكي (Malinowiski) وتحرير سوسور من وساطة فيرث (Firth) لكنّ ذلك لم يحدث. وإذا فهمنا الأسباب فهمنا جمع المتوكّل بين التداوليّة والسيميائيّة البنيويّة.

* * *

(30) أحمد المتوكل دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. ص 93.

(31) - Raymond Polin, La création des cultures, P.U.F, 1993, p,47-142.

اللّغة عند تمام حسان ظاهرة اجتماعيّة [32] إنّها "وسيلة من وسائل الاجتماع وأداة ذات غرض محدد كما يقول مارتينه" [33]. من هنا كان المعنى عنده هو أساسا "المعنى الاجتماعيّ" [34] إنّه "الغرض الأسمى الذّي يسعى إليه علم الدلالة الوصفيّ" [35]. ومن هنا أيضا كان الارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو العرف وهو صلة المبنى والمعنى" [36]. ولهذه الأسباب أيضا أعجب تمام حسان بالجرجاني إعجابا شديدا - كما أعجب به المتوكّل - واعترف بفضله عليه في صياغة كثير من آرائه الخاصة" بتناول المعنى النحوي والدلالي" [37] ودراسة "المعاني الوظيفيّة" التّي أهملها النحاة وأخرجوها من دوائر اهتماماتهم. ولهذه الأسباب أيضا احتلّ المقام و"السّياق" محلاّ رفيعا من مفهوم المعنى وفي "تشقيقه إلى ثلاثة معان فرعيّة، أحدها المعنى الوظيفيّ (...) والثاني المعجميّ (...) والثالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام [38]. كل هذه التصورات صادرة عند تمام حسان عن "سؤال ملحّ" [39] وضع اللغة العربيّة "في امتحان قاس" [40]. أمّا السّؤال فهو كيف ترد اللّغة إلى المجتمع بعد أن ظلت "مقطوعة الصّلة به" [41] دراسة واستعمالا، وأما الامتحان فهو امتحان العربيّة حتى تكون "وسيلة حياة في المجتمع (بالنسبة إلى المتكلم) ووسيلة

(32) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء 1980، ص 53 (ط. 1 مصر 1958).

(33) مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1979، ص 37 (ط.1، 1954).

(34) نفسه، الصفحة 277.

(35) نفسه، نفس الصفحة.

(36) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1973، ص 9.

(37) نفسه، ص 18.

(38) نفسه، ص 28 - 29.

(39) اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 150.

(40) نفسه، ص 191.

(41) اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 7.

كشف عنه (بالنسبة إلى الباحث)" [42] إن فشلت فيه حلّت محلها اللغات الأجنبية وضاعت الهوّية الحضاريّة.

بناء على هذا الامتحان وذاك السؤال تحدّدت "خطة الكتاب وفلسفته" [43] وقامت. ومقتضى هذه الفلسفة أن تكون "اللغة في خدمة المجتمع و(أن يكون) المنهج في خدمة اللّغة" [44].

وكما اتهم الفاسي الفهري المتوكّل بالتقصير المنهجي وعدم القدرة على تأطير خطابه داخل فضاء استدلالي واضح اتّهم المتوكل (مع الفاسي) الوصفيّين بعدم القدرة على بناء جهاز نظري قادر على وصف العربيّة وإسقاط مبادئ البنيويّة ووجهات نظرها عليها (المتوكل، 243). وليس مقصدنا ههنا بيان صحة الاتهامات المتبادلة أو بيان فسادها. ما يهمنا هنا فهم جمع المتوكل بين التداوليّة والسيميائيّة وهذا يساعدنا عليه تمام حسان و"سؤاله الملحّ" الذّي حدّد الخطّة ورسم الفلسفة التي عليها قامت الاختيارات المنهجيّة في بعدها اللغوي.

يقول لنا تمام حسان إنّ السّؤال كان تعبيرا عن قلق حضاري جماعي [45]. كان السؤال ملحا إذن فلابدّ من صياغته. وكان السؤال يعبر عن قلق فلابد أن يصاغ فصيغ على نحو قلق. ومنابت القلق كما يشرحها تمام حسان "اضطرابات عديدة تعود كلها إلى النزاع الذي في نفوسنا بين الاتجاه إلى الحضارة العالميّة الحديثة أو الاحتفاظ بطرق الحياة الإسلامية التقليدية" [46]. في اللحظات القلقة التي تكون فيها "النفس موزّعة بين الشرق والغرب" [47] تكون صياغة الإجابة أيضا قلقة مائلة. وإذا استبد

(42) اللغة العربية معناها ومبناها، ص 32.

(43) اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 6.

(44) اللغة العربية معناها ومبناها، ص 32.

(45) مناهج البحث، ص 4.

(46) اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 149.

(47) مناهج البحث، ص 4.

القلق وتعاظم وتفاقم تحوّل إلى قلق نظري ووضعت الأشياء في غير مواضعها وأكرهت على النزول في غير محالها التّي من حقها أن تنزل فيها وتحلّ بها.

وضع المتوكل التداوليّة جنبا إلى جنب مع سيميائيّة غريماس فأقلقهما معا. ثم أرهق بهما التراث، إذ لا يعقل أن يكون في التراث ما فيهما معا لأن الذي في التداولية ليس في السيميائيّة البنيويّة. لكن المتوكل احتاج إلى الأولى "لخدمة المجتمع" واحتاج إلى الثانية "لتحقيق العالميّة".

وهل هناك أقدر من السيميائية على تحقيق هذه العالميّة ؟ ألم يكن من طموحاتها أن تقوم بديلا عن فلسفة العلوم وعلما للعلوم كلها [48]. ألم تحوّل منوالها السردي إلى منوال تكوينيّ" (modèle constitutionnel) قادر على دراسة مختلف "أشكال الإنتاج الاجتماعي للمعنى" [49].

لقد نظرت سيميائيّة غريماس بعد أن أصبحت السردية (narrativité) محتضنة لكل أشكال الخطابات السردي منها وغير السردي إلى جميع العلوم بوصفها خطابات خاضعة لقوانين معرفيّة عامّة وحدّدت مطلوبها العاجل في اكتشاف هذه القوانين وحصرها بوصفها كلّيات مستقرها بنيات سيميا - سردية (Structures sémio-narratives) قابعة هناك في أعماق الخطاب في محلّ سابق منطقيّا بل وانطولوجيا لتجلياته الخطابية الظاهرة [50]. وليست هذه القوانين إلا أشكالا (formes)

---

(48) - Julia Kristeva, La mutation sémiotique, Annales, Economies sociétés civilisations, 2ème année, Novembre-Décembre 1970, N° 6, p.1497-1552.

- Recherches pour une sémanalyse, Seuil, 1969, p.22-25-128.

وقارن :

- J.C.L Gardin (et autres), la logique du plausible. Essais d'épistémologie pratique en sciences humaines, éd, la maison des sciences de l'homme, Paris, 2ème éd 1987, p.89 - 95.

(49) Greimas (et autres) : Introduction à l'analyse du discours en Sciences sociales, Hachettes, 1979, p.5.

(50) Jean Petitot- Corcoda : Morphogenèse du sens I, P.U.F. 1985, chap. III : Structures sémio-narratives et prégnances asémantiques, p.201-277.

وعلاقات (relations) مستقلة عن المضامين أو المواد (substances) ودالّة قبل تجلياتها الخطابيّة السطحيّة المختلفة بالجنس والزمان والمكان. ولذلك لم يكن من أهداف هذه السيميائيّة دراسة المحتويات والمضامين وتقويمها وإنّما دراسة الأشكال الخطابية وتصنيفها تصنيفا يساعد على بناء منوال نظري عام يمثّل الأشكال العالية التي يخضع لها إنتاج المعنى. وقد سعى غريماس إلى توسيع المنوال السردي ونقله إلى مجال العلوم الاجتماعية لتتحول السيميائيّة إلى منوال ابستيمولوجي عليه بنى المتوكل قراءته لنظرية المعنى عند العرب.

والحقّ أنّ دراسة المتوكّل لا تساعد القارئ على فهم الصّلات المتينة العميقة المحكمة البناء بين الوجه اللساني السيميائي لمنوال غريماس ووجوهه الابستيميّة التي في إطارها قامت قراءة المتوكّل للخطاب اللساني العربي القديم. ولقد بان لنا أن فهم مختلف صور حضور غريماس في دراسة المتوكل متعذر بل مستحيل دون فهم تلك الصلات. ولذلك عدنا إلى أهمّ مؤلفات غريماس [51] وبحثنا عن دراسات تساعدنا على فهم "فلسفته" ومختلف مرجعياتها البنيويّة هي عمدتنا في ما سنقوله لاحقا راجين أن نعود إلى المسألة في عمل لاحق.

يكفي أن نشير ههنا إلى أن سيمائية غريماس ترفض النّظر إلى اللّغة من جهة كونها أداة تواصل [52] وأنّ غريماس وأصحابه يعتبرون أن هذه الفرضية الوظيفية فرضيّة قائمة على اختزال يحول دون فهم الكلام الإنسانيّ. ولذلك حرص غريماس على بيان اختلاف دلالات مفاهيم كثيرة عن دلالاتها التي لها في المدارس الوظيفيّة أو التداوليّة وعلى رأسها مفهوم

(51) - Greimas : -Sémantique structurale- recherche de méthode- Larousse, Paris 1966.
- Du sens , seuil, Paris, 1970.
- Sémiotique et sciences sociales, Seuil, Paris 1976.
- Greimas (et autres) Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, op.cit.
- Greimas (et, J. Courtés), Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage. T.I., Hachette 1979.

(52) Greimas et Courtés, Dictionnaire : communication (45 - 48), langage (203 - 204). J. Courtés, analyse sémiotique du discours, Hachette, 1991, p.11-12.

التداوليّة ذاته [53] ومفهوم المعنى [54] والنص [55] والخطاب [56]. وهي تجري عنده جميعا لتؤكد على البعد الشكلي في سيميائيّته وعلى البعد البنيوي في فهمه للمعرفة العلميّة ولتطوّرها. وهذا البعد هو الذي تبناه المتوكل ودافع عنه منذ بداية دراسته لكننا لا نفهم منابته البنيويّة إلاّ في آخرها وبالتحديد في القسم الذّي خصصه لبيان القواعد المنهجية التي يجب أن تتأسس عليها عمليّة إعادة القراءة.

ونقطة الارتكاز في تصوّر المتوكل ومن ورائه غريماس للمعرفة العلمية أنّها معرفة كونيّة ليس للتاريخ دور في تطوّرها وتحوّلها. إنّ الخطاب العلميّ (والخطاب اللساني والسيميائي جزء منه) خطاب كوني لأن مختلف الخطابات لا تمثّل إلا شذرات خطاب علمي واحد جامع. إنّها مجرد إنجازات (performances) ترتدّ إلى نفس الكفاءة الخطابية (compétence discursive) التي حازتها الذّات العارفة منتجة الخطاب العلمي وهي عند غريماس ذات متموقعة على هامش الزمن (المتوكل، 18) [57]. ولا معنى في تصوّر غريماس لتطوّر المعرفة العلمية للمآزق ولمفهوم القطيعة الابستمولوجية لأنّ ذلك ليس عنده في نهاية التحليل إلاّ "مغامرة فاشلة" محلّها الإنجاز ولا صلة لها بمستوى "الكفاءة العلمية" (أو المعرفية) لأنّ هذه الكفاءة كفاءة مطلقة ثابتة متعالية على التاريخ [58].

* * *

في ظل هذه التصورات قام مشروع المتوكّل التأليفيّ فردّ مختلف الخطابات القديمة حول المعنى إلى خطاب واحد جامع يعبّر عن نفس المبادئ النظرية الثابتة. وفي ظلها أيضا تطابقت آراء غريماس مع أقوال

(53) Greimas dictionnaire : pragmatique (288) : Herman Parret, les passions, essai de la mise en discours de la subjectivité. Pierre Mardaga, éditeur, liège, Bruxelles, p.62-65-91-93.

(54) Greimas, dictionnaire, 348, Jean-Petitot Corcoda, op.cit, p.14,211,273.

(55) Greimas, Dictionnaire, p.389-390.

(56) Greimas, Dictionnaire, p.102-105.

(57) Greimas, Sémiotique et Sciences sociales, p.27-31 , Greimas (et autres) : Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, op.cit, p.59-60.

(58) Greimas, Sémiotique et Sciences Sociales, op.cit, p.26-31.

هذا هو السؤال الذي انطلقنا منه في هذا البحث وسعينا إلى الإجابة عنه فقادنا ذلك إلى العودة إلى تمام حسان لنقرأه ونقرأ به الفاسي الفهري ثم نقرأ بهما معا المتوكّل. ويبدو لنا أن تفسير ذلك ماثل في ذلك "السؤال الملحّ" الذّي صاغه تمام حسان منذ عقود فأوقعته صياغته له في "مآزق وتناقضات" [80] عديدة في قراءته للتراث النحوي عامة وفي تصوّره لمفهوم المعنى خاصّة [81] كان من أخطر مظاهرها "تجريبيّة" [82] مركبة أدت إلى "قلة التنظير للممارسة العلميّة وعدم وعي الباحث بالمسلّمات التّي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية" [83].

ولعلّ ذلك "السّؤال الملحّ" الذي جعل تمام حسان يفكّر في ردّ اللّغة إلى المجتمع لتقوم بوظيفتها هو نفس السّؤال الذي جعل المتوكّل يبحث عن نظرية مؤسّسة تداوليّا في التراث العربي.

ورغم وحدة السّؤال فإنّ اتهام المتوكّل بالقصور النظريّ والنقص في الأدوات المنهجيّة (الفاسي الفهري) قد يكون اتهاما مردودا. ورغم وحدة السّؤال أيضا فإنّه قد يصعب جدّا وسم دراسة المتوكل "بالتجريبيّة" بالمعنى الذّي للعبارة عند عزالدين المجدوب.

لقد سعى المتوكل إلى تأسيس خطابه تأسيسا ابستمولوجيا إلاّ أن البحث عن أقوم المسالك للدخول إلى التاريخ الكوني هو الذي ضيّع عليه "المراقبة الابتستيمولوجيّة" فتداخلت المرجعيّات ولم تكن قراءة التراث تأويلا له وإنّما استعمالا وتوظيفا [84].

(80) د. عزالدين مجدوب، المنوال النحوي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب، سوسة -دار محمد علي للحامي للنشر والتوزيع، ط. 1، 1998، ص 47.

(81) د. صلاح الدين الشريف، النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حسان، حوليات الجامعة التونسية عدد 17، 1979، ص 193 - 229.

(82) د. عزالدين المجدوب نفسه، ص 48.

(83) د. عزالدين المجدوب ، نفسه، ص 12.

(84) Umberto Eco. Les limites de l'interprétation, traduit de l'italien par Myriem Bouzaher, Grasset- Paris, 1992, 1.5 interprétation et utilisation des textes, p.39-40.

أساسية (structure élémentaire de signification) مادام لا وجود من زاوية بنيوية لمعنم (sème) إلاّ بوصفه طرفا في علاقة مع ثان يضمن له وظيفته "الخلافية" (fonction différentielle) [59]. هذه هي الفرضية البنيوية الأساسية في سميائية غريماس التي تجعل كل خطاب خطابا متأسسا على بنية ثنائية [60]. وهذا هو المحضن الابستيمولوجي لاستواء المقارنة عند المتوكل نقطة ارتكاز كبرى عليها بنى كل أطروحته فجاءت بنيتها الخارجية ذاتها محاكية بجزءيها الكبيرين لمفهوم البنية عند غريماس : "عرض" للنظريّة و"وصف" لها ("description "présentation,") ثم "إعادة قراءة" لها (relecture) يجمع بينهما قسم كبير خُصّصَ لتقديم قواعد منهجية في إعادة القراءة هو في الأطروحة تابع للجزء الثاني ولكنّه إذ يقوم بدور العلاقة الرابطة فائض عليه حاضر في جميع أقسامها. لا معنى للوصف ولا قيمة له إلاّ إذا كان مقصده الأقصى المقارنة التّي اعتبرها المتوكّل ضرورة ابستيمولوجية [61] دون أن يشرح لنا مآتي هذه الضرورة.

ولكنّ المقارنة أيضا ضرورة حضاريّة. وهذا أيضا ما لا يقوله المتوكّل لكن يكشف عنه أسلوبه ويدل عليه ما وراء الخطاب (métadiscours) بمعناه ووظيفته عند غريماس ومدرسته. إنّ مسوغات المقارنة هي وحدة الخطاب العلمي ووحدة العقل البشري وحدة لا يغيرها التاريخ ولا يبدلها الزمان وإنّ الخطابين القديم والحديث أخوان. وهذه الأخوة تبرّرها البنيويّة وتقدم لها سيميائيّة غريماس مسوّغاتها النظريّة. وإن ظهر في سطح الخطاب وتجلياته علامات "فشل" أو "خيبة" فذاك مجرّد "مغامرة فاشلة" (بالمعنى السردي) محلّها "الإنجاز" لأنّ قدر البنيات الخطابية الظاهرة

---

(59) Jean Petitot-Corcoda, morphogenèse du sens I, op.cit, p, 214-216, Anne Hénault : Narratologie, sémiotique générale (2) P.U.F., 1983, p.13,23,27.

(60) Robert Tremblay : Analyse critique de quelques modèles sémiotiques de l'idéologie (première partie), In : philosophiques, revue de la société de philosophie du Québec. Vol. X Vol.XVII, n° 1.1990, p.95.99 (art, page, 71-112).

(61) Greimas : Introduction à l'analyse du discours en Sciences Humaines, op.cit, p.51-52..., dictionnaire : comparatisme (49-50), comparative ou comparée (linguistique) (50).

التعدد والاختلاف أما هناك في أعماق الخطاب فالبنية واحدة مطلقة الثّبات.

ومن هذه المنطلقات أيضا في وجوهها النظريّة أرجع المتوكّل كلّ الخطابات العربيّة القديمة التّي اهتمّت بدارسة المعنى إلى خطاب واحد واعتبرها مجرّد مكوّنات لنفس النظريّة فأسقط البلاغة على النحو وعلى أصول الفقه وعلم التفسير بل أسقط السكاكي والجرجاني (خاصة) على سيبويه وأصحابه.

ومن هذه المنطلقات أيضا ترجم المتوكّل المفاهيم القديمة إلى لغة واصفة حديثة فأفرغها من حملها الاصطلاحي وحجب عنا مخزونها النظري وطاقاتها الإشكالية. لقد جرّها إلى نظام مفهومي سيميائيّ بعد أن نزعها عن نظامها الخاص بحجّة إعادة تنظيمها ورصد العلاقات العميقة التّي توحّدها وتجعل منها "نظريّة منسجمة" (المتوكل، ص 97). وإعادة تنظيمها يعني "ترجمتها" و"نقلها" إلى ما وراء - لغة (métalangue) سيميائيّة بناء على أنّ الجهازين المنهجيّين عند العرب وعند غريماس قائمان على نفس التمفصلات الأساسيّة إذ هما جهازان - رغم اختلاف المحتوى - متطابقان (المتوكل، ص 275).

* * *

إنّ تصوّر العرب القدامى للنصّ وللخطاب قريب من تصوّر غريماس بل هو نفس التصوّر (المتوكل، ص 118 - 119). بل لا يتردد المتوكّل في الذهاب إلى أن "مشروع المفكرين العرب القدامى هو دراسة الانسجام التوزيعي (cohérence syntagmatique) (المتوكل، ص 218). هذا الانسجام التوزيعي هو عينه مفهوم "النظم" عند الجرجاني وهو مفهوم أساسي يتحكّم في كل التحاليل العربية القديمة المجراة في مجال تحليل الخطاب. وذلك ما يشهد عليه عند المتوكل مفاهيم أخرى مثل "البناء" و"التعليق" و"المناسبة" التي تدلّ جميعا على معنى الانسجام.

ولن تقف الترجمة والمقارنة عند المتوكّل في هذا المستوى. لقد وجد لكل مفاهيم غريماس ما يقابلها في التراث في مستوى اللغة الواصفة وفي مستوى اللغة المنهجيّة وفي مستوى المفاهيم النظريّة.

وإن لم يكن من مقاصدنا الأولى مناقشة محتوى النتائج التّي وصل إليها المتوكّل وإنما البحث في ما ترتّب على جمعه بين مرجعيّات نظريّة مختلفة والسعي إلى محاولة تفسير ذلك فإنّا مضطرون هنا إلى الوقوف عند مثال نبيّن به ما نتج عن هوس المقارنة من أحكام ومواقف تحتاج إلى المراجعة والنقاش.

نقصد بذلك حديث المتوكّل عن منزلة "الذّات" (Le sujet) في سيميائيّة غريماس وفي النظريّة اللغوية العربية القديمة. المثال مهمّ لأنّه يبيّن أن المتوكّل لم يبن المقارنة على فحص دقيق لمفهوم المعنى عند العرب وعند غريماس. وهو مهمّ لأنه لم يبنها على تمييز واضح صريح لاختلاف منزلة "الذات" في الاتجاه البنيوي وفي الاتجاهات التداولية. وهو مهم ثالثا لأنه يكشف عن نتائج القراءة التي تفصل بين النصوص وسياقاتها التاريخية والنظرية الخاصة.

بناء على مركزية مفهوم التواصل الذي عدّه المتوكل أساس الاتجاه التداوليّ في النظريّة العربيّة القديمة واعتمادا على نصّ من نصوص الجرجاني ينتهي الكاتب إلى أنّ العرب القدامى انتبهوا إلى أهميّة دور المتكلّم في فعل التلفّظ ونبهّوا إلى أن هذا الدور يتجاوز اعتبار المتكلّم مجرّد وسيط يقع المرور به ومن خلاله من أوضاع اللّغة إلى الاستعمال ومن النظام إلى الإجراء إلى كونه "منتجا للخطاب" (المتوكّل، ص 84) "خالقا" له (المتوكّل، نفسه) يتصرّف في مختلف الامكانات التي يوفّرها له النظام فيحوّله إلى "شكل" بعد أن كان "مادّة". وقد سعى المتوكّل إلى الاستدلال على هذا الرّأي بالمقارنة بين ما جاء عند الجرجاني وما جاء عند يلمسليف (Hjelmslev) ليجد أن الجرجاني أطرف وأعجب من يلمسليف نفسه (المتوكّل، 84). فإذا كانت المادة عند يلمسليف هي العالم

الواقعي وكان المصور نظامٌ اللّغة فإن موضوع "التصوير" عند الجرجاني هو نظام اللّغة والمصوّر هو المتكلّم "منتج الخطاب". وهذه نتيجة يقارنها ليزيدها تفصيلا وبيانا بما ورد عند غريماس ليقرّر أنّه متفق اتفاقا تامّا مع أقوال العرب (المتوكّل، 85 - 86).

الجرجاني عند المتوكّل "توليديّ" والجرجاني عند المتوكّل "تداوليّ" والجرجاني أيضا "سيميائيّ".

من أي باب من الأبواب نظرنا إلى المسألة وجدنا الأمور مختلفة جدّا. وإن أغرت النّصوص بالمقارنة فإن ربطها بسياقاتها النظرية اللغوية وغير اللغوية وتأويلها في صلتها بأسئلتها الذاتية قد يغير أشياء عديدة لا تنقص البتة من طرافة الجرجاني وقوته.

من منطلقات سيميانية بنيوية (يلمسليف) حدّد غريماس "الذّات" بوصفها "وحدة تركيبية من طبيعية شكلية محضة" [62] . إنّها مقولة مجرّدة معناها هو وظيفتها بالمعنى النحوي (Tesnière) والمنطقي (Reichenbach) [63] وبالمعنى السرديّ (Propp) [64] ولذلك لا يمكن حدها من جهة بسيكولوجيّة ولا من جهة اجتماعيّة وإنما من زاوية تركيبيّة شكليّة. إنّها "ذات نحويّة [65]". وإن لم ينكر السيميائيون أنّ للذّات وجوها نفسية فقد ظلت هذه الوجوه عندهم وجوها ثانوية كما تؤكد (A. Henault) [66] محلّها المستوى الخطابي الظاهر الذي لا يمثل عند غريماس موضوع السيميائية لأنّ مقصدها ومطلوبها كما رأينا الأشكال السيميا - سردية (Formes sémio-narratives) [67] وهي "أشكال محضة" [68] "فارغة من المعنى" [69].

---

(62) A. J Greimas, Dictionnaire Actant, P.3.

(63) Ibid, Sujet, p.370.

(64) Anne Hénault, Narratologie, Op.cit, P.85.

(65) Greimas, Dictionnaire, p.370.

(66) Anne Henault, op.cit, p.85-86.

(67) Jean Petitot, op.cit, p.21.

(68) Anne Henault, op. cit, p.205.

(69) anne Henault, op.Cit, p.207.

وإذا كان المنعرج اللساني (linguistic-turn) قد دفع غريماس إلى مراجعة مفاهيم كثيرة وإعادة صياغتها صياغة جديدة لتجاوز "الاختناق" [70] الذي تورّطت فيه البنيوية فقد ظل وفيّا للفرضيات المنهجيّة البنيويّة الكبرى ولمسلماتها الابستيمولوجيّة الأساسيّة ففي إطار حلّ إشكال العلاقة بين "النّظام" (Système) و"الإجراء" (procès) " [71] والبحث عن "لحظة توسّط" تضمن المرور من هذا الطرف إلى ذاك ذهابا وإيابا بوصفهما شكلين سيميائيين ينتهي غريماس إلى أن لحظة المرور هذه - وههنا موطن الاشكال في مقارنته بالجرجاني - لا صلة لها بذات انطولوجية متعالية. إنّ "الذّات" منتجة الخطاب ليست عند غريماس من الناحية السيميائيّة إلاّ لحظة متصوّرة موهومة [72] يبنيها اللّساني داخل إطاره النظريّ لفهم آليات تحوّل الشّكل من مستوى محور الاختيار (أو الاستبدال) إلى محور التوزيع [73]. الذّات في هذا التصور السيميائيّ البنيوي لا تنتج الخطاب بقدر ما هي من إنتاجه [74]. ذاك ما دفع غريماس إلى الإشارة إلى ما في عبارة الذّات المنتجة للخطاب من حمل استعاري لا يمكن أن يكون إلا من نوع الاستعارات القبيحة المردودة [75].

بأيّة صورة من الصور وبأي معنى من المعاني ذهب الجرجاني إلى أن المتكلم خالق لخطابه ؟ هل يمكن أن يذهب أشعري مثله فيرتكب القول بأن المتكلم خالق لخطابه وهو الذي ليس له من أفعاله إلا مجرد الكسب يقول وليس هو القائل كما يرمي وما رمى. إن خلق المتكلم لخطابه يصبح قولا موغلا في المجاز واستعارة من الاستعارات الغريبة البعيدة المرذولة.

(70) - Catherine KerbratOrecc hioni, L'énonciation, de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, 1980, p.6.

(71) - Greimas, Sémiotique Sciences sociales, p.10 - 13.

(72) - Greimas, op.cit, p.10.

(73) - Greimas, op.cit, p.11.

(74) - Greimas, op.cit, p.12.

(75) Greimas, op.cit, p.11.

ولنتصوّر أنّ الجرجاني، على سبيل الافتراض ذهب إلى هذا. فعن أي متكلّم تحدث ؟ وداخل أي أفق إشكالي صاغ موقفه. ماذا لو قال قائل للمتوكل إن المتكلّم عند الجرجاني هو الله وإنّ الكلام الالهي عند الأشاعرة ليس من جنس الكلام الذي في الشاهد ؟ ماذا لو قال قائل للمتوكّل إنّ الكلام عند الجرجاني قديم قدم الله وصفة من صفات ذاته كالعلم والإرادة لا صفة من صفات أفعاله ؟

هل يمكن أن يكون المتكلّم عند الجرجاني منتجا لخطابه بالمعنى القوي للعبارة عند التداوليين - وهذا ما يقتضي التشريع من وجه آخر لكفاءة ما على "ركوب الهوى" [76] فضلا عن أن يكون منتجا له بالمعنى التركيبي عند غريماس و"المعنى" عند هذا ليس "المعنى" عند الجرجاني.

ولا فرج للمتوكّل لو انتهض فردّ : إنّ المتكلم عند الجرجاني هو الشاعر المبدع الذي يقتضي منه فعل الإنشاء إخراج الكلام على غير مخرج العادة حتى يكون له فضل ومزية وهذا ما يقتضي منه أن يكون منتجا للخطاب على الحقيقة لا على المجاز.

إذا صحّ هذا سألناه : لم لا يكون هذا التأويل هو حاصل معنى نصوص الجرجاني ودلالاتها المنطوقة الظاهرة في بنية اللفظ وهي ليست

---

(76) "ركوب الهوى" عبارة نترجم بها ما يسميه هـ.باري (Herman Parret) بـ (La compétence passionnelle) . انظر :

Les passions, essai sur la mise en discours de la subjectivité, Bruxelles, 1986. p. 41, 62, 151.

وقارن :

- Robert Misrahi, la problématique du sujet aujourd'hui, encre marine 1994. préface : Philosophie de la joie et problématique du sujet, p.11-29. 4. condition de possibilité d'une philosophie de la joie, p.17-19.
- Paul Ricoeur, le conflit des interprétations, Paris, seuil 1969, la question du sujet : le défi de la sémiologie (233-262).
- Paul Henry, le mauvais outil, langage, sujet et discours, éd. Klincksieck, Paris 1977, II sujet langage et savoir, autour de la linguistique, p.87-168.
- Bernard Ibal, la querelle du sujet entre les linguistique phénoménologique et structurale,. In : analyses et réflexions sur le langage I, ouvrage collectif, éd. Marketing- Ellipses, Paris, p.86-103-115.
- Louis Dumont, Essais sur l'individualisme, une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne, éd. Seuil, 1983, I. Sur l'idéologie moderne (33-190), Genèse , I. De l'individu- hors-du monde à l'individu- dans- le monde (35-81).

- على نهج القراءة الوظيفيّة والتداوليّة - دلالاتها المرادة المقصودة أي دلالاتها السياقية ووظائفها التداوليّة.

وإذا دفعنا السؤال إلى أقصى مناطقه النظريّة الممكنة سألنا المتوكل وتساءلنا معه أين نجد "النظريّة" ؟. هل في معنى النصوص بوصفها نصوصا مقطوعة عن سياقاتها اللغويّة وغير اللغوية أم بوصفها خطابات متأسّسة على استراتيجيات مختلفة ؟ المسألة والقضيّة معضلة كما يقول القدامى.

* * *

لم يكن مقصدنا من هذا البحث مناقشة المتوكّل في محتوى النتائج التّي وصل إليها في قراءته للتراث اللغوي ولذلك فإن الغرض من طرح هذه الأسئلة هو بيان المنطلقات النظرية والمنهجيّة التي عليها بنى إعادة قراءته لنظريّة المعنى عند العرب ورصد ما آل إليه جمعه بين مرجعية وظيفية تداولية وأخرى سيميائيّة بنيويّة جمعا أقلق به المرجعيتيّن معا وأرهق بهما مجتمعين الخطاب اللّغوي العربي القديم وضاعت الحدود بين لحظة "الوصف" ولحظة "إعادة القراءة" رغم حرص المتوكّل نظريا على ضرورة الفصل بينهما (المتوكّل، ص 248). ولم تستطع سيميائية غريماس أن تساعده في حلّ المسألة في بعدها التأويليّ الخالص لأنّها سيميائيّة "توليدية" لم يكن من مقاصدها تقديم نظرية في التأويل [77] ولأنّها أيضا سيميائيّة عقلانيّة شكلانية تخشى السجال المتافيزيقي [78] وتكتفي بصناعة مفاهيم مستقرّها مفاهيم بسيطة محدودة العدد غير قابلة للتعريف (Insdéfinissables) على رأسها مفهوم "الوصف" ومفهوم "البناء" بل مفهوم المعنى ذاته [79].

لماذا هذا الجمع بين مرجعيّتين نظريتين في دراسة المتوكّل ؟ ما هي أسبابه ؟ ، ما هي مقاصده ؟.

(77) François Rastier, Sémantique interprétative,P.U.F. Paris, 1987, p.216-218.

(78) Greimas, Dictionnaire : description (92-93), Construction (65), immanence (181-1882).

(79) Jean Petitot - Corcoda, op.cit, Les indéfinissables comme universaux, p.271-273.

هذا هو السؤال الذي انطلقنا منه في هذا البحث وسعينا إلى الإجابة عنه فقادنا ذلك إلى العودة إلى تمام حسان لنقرأه ونقرأ به الفاسي الفهري ثم نقرأ بهما معا المتوكّل. ويبدو لنا أن تفسير ذلك ماثل في ذلك "السؤال الملحّ" الذّي صاغه تمام حسان منذ عقود فأوقعته صياغته له في "مآزق وتناقضات" [80] عديدة في قراءته للتراث النحوي عامة وفي تصوّره لمفهوم المعنى خاصّة [81] كان من أخطر مظاهرها "تجريبيّة" [82] مركبة أدت إلى "قلة التنظير للممارسة العلميّة وعدم وعي الباحث بالمسلّمات التّي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية" [83].

ولعلّ ذلك "السّؤال الملحّ" الذي جعل تمام حسان يفكّر في ردّ اللّغة إلى المجتمع لتقوم بوظيفتها هو نفس السّؤال الذي جعل المتوكّل يبحث عن نظرية مؤسّسة تداوليّا في التراث العربي.

ورغم وحدة السّؤال فإنّ اتهام المتوكّل بالقصور النظريّ والنقص في الأدوات المنهجيّة (الفاسي الفهري) قد يكون اتهاما مردودا. ورغم وحدة السّؤال أيضا فإنّه قد يصعب جدّا وسم دراسة المتوكل "بالتجريبيّة" بالمعنى الذّي للعبارة عند عزالدين المجدوب.

لقد سعى المتوكل إلى تأسيس خطابه تأسيسا ابستمولوجيا إلاّ أن البحث عن أقوم المسالك للدخول إلى التاريخ الكوني هو الذي ضيّع عليه "المراقبة الابتستيمولوجيّة" فتداخلت المرجعيّات ولم تكن قراءة التراث تأويلا له وإنّما استعمالا وتوظيفا [84].

(80) د. عزالدين مجدوب، المنوال النحوي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب، سوسة -دار محمد علي للحامي للنشر والتوزيع، ط. 1، 1998، ص 47.

(81) د. صلاح الدين الشريف، النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حسان، حوليات الجامعة التونسية عدد 17، 1979، ص 193 - 229.

(82) د. عزالدين المجدوب نفسه، ص 48.

(83) د. عزالدين المجدوب ، نفسه، ص 12.

(84) Umberto Eco. Les limites de l'interprétation, traduit de l'italien par Myriem Bouzaher, Grasset- Paris, 1992, 1.5 interprétation et utilisation des textes, p.39-40.

ما هي الحدود النظريّة والعمليّة بين "التأويل" و"الاستعمال" ؟ وما هي المسافات الضرورية الفاصلة بين المعنى كما هو حاضر في النص المقروء والمعنى الذّي تسعى القراءة إلى وصفه وبنائه ؟ ما هي المسافات الفاصلة والواصلة بين معنى النص والمعنى الغالب على قلب القارئ السابق إلى فهمه ووهمه ؟ إلى أي حد يجوز الحديث عن فكر نظري خالص لا يداخله اليومي ولا تدنّس "صفاءه" مقتضيات "الممارسة" وأسئلة "العمل" ؟

على كلّ هذه الأسئلة وعلى غيرها سعت الاتجاهات التأويلية إلى الإجابة. وكان في إجاباتها مكاسب منهجيّة ونظرية عديدة إلا أنّها لم تخل من مضايق ومآزق (ضرورية) قويّة قوة دراسة المتوكّل وقوة الأسئلة التّي تثيرها.